الشيخ محمد عبده

بين

الفلاسفة والكلاميين

عرض وعلاج لأهم مشاكل الفكر
البشرى بقلم الشيخ محمد عبده

تحقيق وتقديم
الدكتور سليمان دنيا
استاذ الفلسفة المساعد فى كلية أصول الدين

القسم الأول

دار احياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

الطبعة الأولى
جميع الحقوق محفوظة
١٩٥٨ م ـ ١٣٧٧ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله ، وأسأله ـ جلت قدرته ـ أن يصلى ويسلم على جميع أنبيائه ورسله ، خصوصاً سيدى ومولاى محمد بن عبد الله ، خاتمهم وواسطة عقدهم .

اللهم متعنى بجواره ، وأسعدنى بقربه ، واجعلنى من خدم رسالته .

اللهم ، واجعله إمامى ، وقدوتى ، وانفعنى به ، ونجنى مما أخاف ببركته .

اللهم ثبتنى على دينك ، وامنحنى رضوانك ، ولا تخيب فيك يا إلهى رجائى .

أنت ربى لا إله إلا أنت . سبحانك ربى وإليك المصير .

اللهم اجعل الحق هدفى من كل أعمالى ، واجعل الصدق شيمتى ، والإخلاص للحق ديدنى ، والقرآن حجتى .

آمنت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا .

اللهم اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى .

لا إله إلا أنت وحدك لاشريك لك ، تحيى وتميت ، وأنت على كل شىء قدير.

⁂

عزيزى القارئ :

إن الكتاب الذى بين يديك يحوى نصوصا ثلاثة :

النص الأول : ـ وهو الذى اتُّخِذَ محورا يدور حوله الشرح والبسط ، والتعليل والتدليل ، والاعتراض والنقد ـ هو لعضد الدين الأيجى صاحب كتاب « المواقف » وقد جعلته فى أعلى الصحيفة ، ووضعته بين معكوفتين هكذا [. . .] .

⁂

والنص الثانى : ـ وهو الشرح والبسط ، والتعليل والتدليل .

والاعتراض والنقد ـ هو لجلال الدين الدوانى ، الباحث المتعمق ، والناقد الحر .

وقد جعلته مع نص « العضد » فى أعلى الصحيفة .

⁂

والنص الثالث : ـ وهو النص الجرئ الذى وقف من النصين السابقين موقف المهمين ، الذى أذهله تحمسه للحق ، عن اصطناع وسائل المحاباة ، أو الرضوخ لداعى العصبية ـ هو للشيخ محمد عبده ، الذى صاح فى وجه الباطل أكثر من مرة ، صيحة أفزعته ، ومكنت للحق منه ، وقد جعلناه فى أسفل الصحيفة ، مفصولا من النصين السابقين بجدول .

⁂

وإذا كناقد أسندنا الكتاب لصاحب المرحلة الأخيرة ، وجعلنا عنوانه مقصوراً عليه ، فليس ذلك غمطاً منا لشريكيه ، كيف . . . ؟ وفضلهما سابق ، سامق .

وإنما القصد أن نبرز للشيخ محمد عبده أثرا من أهم آثاره ، فاقتضانا ذلك أن يكون مكانه فى العنوان بارزاً .

على أن الأمر ليس أمرا لعنوان وحده ، وإنما هو أمر الكتاب ذاته ، ولن يلبث القارئ أن يجد نفسه بين أعلام ثلاثة يتبارون ، بل يتبارزون ، ومن خلال هذا التبارى ، وتلك المبارزة ، سيعرف لكل منهم قدره .

والأمر الذى لا شك فيه أن صاحب النص الأول ، قد عرف فضله من كتبه العديده .

وما أظن أن شأن جلال الدين الدوانى يختلف عن شأن العضد فى ذلك ، فهو رفيع الشأن ، عظيم القدر ، بما له من مؤلفات عديدة ، وتحقيقات سديده .

إن الشيخ محمد عبده هو الشريك الجديد الذى يحتاج أن يدخل فى التاريخ من الباب الذى دخل منه شريكاه ، ولهذا سوف نقصر كلمتنا فى هذه العجالة عنه .

⁂

والشيخ محمد عبده شخصية يحس بها الجيل الحاضر إحساساً قوياً ، لقرب العهد بها ، فكثيرون ممن رأيناهم ، وعشنا معهم طويلا ، رأوها وعاشوا معها طويلا .

ولكن ليس قرب العهد بها مرجع الأمر فى إحساسنا القوىّ بها ، فإن كثيرين ممن عاصروا الشيخ محمد عبده ، لا نحس بهم ، كما نحس به ، بل إن كثيرين ممن يعاصروننا ، ليس لهم فى نفوسنا ما لشخص الشيخ محمد عبده . من أثر .

وقد عاش الشيخ محمدعبده فى الأزهر و بين الأزهريين ، فكان أزهريا مثلهم ، يفهم الكتب الأزهرية ، و يتعمق معانيها ومراميها ، كما يفهمون و يتعمقون ، ولكنه عاش إلى جانب ذلك مع الناس خارج الأزهر ، فانفعلت نفسه بالمجتمع ، مثلما انفعلت بالبيئة الأزهرية .

وربما كانت نفس الشيخ محمد عبده ، سريعة الانفعال والتأثر ، فانطبع فيها أثر من هذا وأثر من ذاك ، وتفاعل الأثران فكان منهما مزيج عكس على المجتمع شيئا من أثر الحياة الأزهرية ، وعكس على الأزهر ـ أو حاول أن يعكس ـ شيئا من أثر الحياة الخارجية .

و يظهر أن هذا التكوين الثنائى قد خلق متاعب للشيخ محمد عبده ؛ إذ حاول أن يرضى أحاسيسه كلها ، فينقل شيئا من الأزهر إلى المجتمع ، و ينقل شيئا من المجتمع ، إلى الأزهر .

أقصد أنه ربما حاول أن يقرب بين الأزهر والمجتمع ، بين دنيا الناس ودينهم . وعساه لقى معارضة شديدة ، من الناس خارج الأزهر ، كما لقى معارضة من الناس فى داخل الأزهر .

فالناس فى خارج الأزهر ، تنقصهم الروح الدينية التى تدخل فى حياتهم عناصر من

العزة والكرامة ، والشمم والإباء ، تعلو بهم عن سفساف الأمور ، والانحدار فى مسالك الحيوان الأعجم .

والناس فى داخل الأزهر ، لا يحاولون أن يتصرفوا فى بضاعتهم تصرفا يجذب الأنظار إليها ، ويحبب الناس فيها ، ويعرفهم مقدار الحاجة إليها .

هكذا كان المجتمع المصرى ، وكان الأزهر فى عهد الشيخ محمد عبده ، كلاهما لا يحاول الالتقاء بالآخر ، فلا الأزهر يحاول محاولة جدية أن يدنو من المجتمع ، ولا المجتمع يحاول أن يدنو من الأزهر .

وظلا كذلك كالماء فى البئر ، والظمآن على شاطئه .

فلا الماء يصعد من تلقاء نفسه إلى الظمآن .

ولا الظمآن يحتال على الاغتراف من ماء البئر .

ومثل هذه الحال تفرض على المصلح أن ينظر إلى كلتا الجهتين ؛ ولقد عمل الشيخ محمد عبده فى كلا الميدانين ، وكان له فى كل منهما أثر .

ولست هنا بسبيل أن أتحدث عن أثره فى المجتمع ، فإن المقام يفرض علىّ أن أقصر حديثى — فى هذه العجالة — عن الشيخ محمد عبده فى المجال العلمى ، وسأقصر نفسى — حتى فى هذا الجانب — عليه فى حدود كتابه هذا الذى بين أيدينا .

والأمر الذى لا شك عندى فيه أن الشيخ محمد عبده قد وهب عقلا نيرا نفاذا ، وبيانا مشرقاً أخاذا ، فأبرز آثار عقله فى أسلوب واضح رائق .

ومما لا شك فيه أيضاً أن الشيخ محمد عبده ، كان حاد الطبع ، قوى الشخصية شديد الاعتداد بنفسه ، وأنه كان واسع الاطلاع على ما كتب فى الإسلام ، وعن الإسلام ، ولا شك فى أنه قد أعطى عقله حريته فى البحث ؛ والفهم والنقد .

وأوضح أثر لهذه العمليات الفكرية ، هو هذا الكتاب الذى بين أيدينا ، فقد استعرض فيه مذاهب الكلاميين عامة ، ومذهب أهل السنة خاصة ، مع آراء

الفلاسفة . صوّر كلا من هذه المذاهب والآراء ، تصويرا دقيقا كل الدقة ، فاهما كل الفهم ، ثم عقب عليها بما يراه من نقد ، وهو فى نقده ، يتعالى ويتسامى ، وتسعفه كفايته بما يشبع فيه نزعة التعالى والتسامى . فلا يضرب إلا ليصيب ، ولا يصيب إلا ليصمى .

وإنه لبارع كل البراعة فى تشقيق القول ، وتحليل المسائل ، وتوليد الآراء . وإن قدرته هذه ، لتجعله قادرا كل القدرة ، على الميل بالرأى عن متعارف الناس فيه ، ميلا لا تحس فيه بتعمل ولا بتكلف ، بل إنك لتجد كأن الرأى فى صورته التى يعرضه فيها الشيخ محمد عبده ، هو مراد صاحب القول منه ، وما عداه ، كأنما هو غريب عنه ، وهكذا يستطيع الشيخ محمد عبده بمقدرته الفائقة أن يصرف قارئه عن المتعارف عن الرأى إلى شىء آخر غيره .

ويبدو أن الشيخ محمد عبده قد أحس بالفشل فى الميدان الداخلى — ميدان الأزهر — أو على الأقل أحس بضآلة الأثر الذى ترتب على جهاده ، لذلك كان عنيفا فى حديثه عن الأزهريين ، يلوم ويعتب فى حدة وعنف ، وله فى ذلك كلمات متناثرة ، يصادفها القارئ فى مواضع من الكتاب .

ويظهر أن تحميل الشيخ محمد عبده منهج الأزهريين ، فى البحث والدرس ، مسئولية عدم استجابة الناس لدعوتهم ، ومسئولية عدم انتفاع الناس بهم قد حمله على أن يسرف فى متابعة خصومهم . فقد تابع الشيخ محمد عبده الفلاسفة فى أمور لا يصعب على المنصف أن يرى صواب رأيه فيها ، مثل بحث زيادة الصفات وعدم زيادتها . كما تابعهم فى أمور لا يصعب على المنصف أيضاً أن يرى أن الشيخ محمد عبده لم يكن لديه من المبررات ما يكفى لوثوقه بها . وسأعود لشىء من هذه المسائل فيما بعد .

والشيخ محمد عبده رجل كبير العقل ، جرىء القلب ، يستطيع أن يفهم ما يقوله الناس على الوجه الذى أرادوه ، ولا يتهيب أن يقول فيه ما يبدو له أنه حق .

وهو إلى جانب كبر عقله ، وجرأة قلبه ، قد أتيح له من الفراغ ما ملأه بالقراءة والاطلاع .

فتوفر له بوساطة كل ذلك إنتاج خصب دسم ، رغم قلته .

و إن القارىء ، لا شك ، واجد متعة فى أن يقرأ لرجل اجتمعت له كل هذه الميزات : اطلاع واسع ، وعقل فاحص ، وشجاعة تمكن من اعلان الرأى و إبدائه .

وما أظن إلا أن خصوبة الشيخ محمد عبده ودسامة إنتاجه . هى بدورها مجال ، لنقد أو تعقيب . وهذا هو الشأن دائما فى كل تفكير يعرض للعويص من المشاكل ، ويحاول أن يصل فيها إلى رأى حاسم .

وكذلك كان الشيخ محمد عبده رحمه الله ، فهو لم يقنع بما قنع به كثير من المؤلفين ، من حكاية آراء ، العلماء من قبله وتصوير وجهة نظرهم ، ليقوم بدور هو أشبه بالتبليغ فقط .

إن الشيخ محمد عبده ، افترض إمكان الوصول فى هذه المشاكل ، إلى حلول صائبة ومقنعة فى الوقت ذاته ؛ لذلك تراه ينتهى إلى حلول لمشاكل الجبر والاختيار ، وما إليها ، انتهاء يخيل إليك أن صاحبها لا يخالجه شك فى أنه قد أصاب كبد الحقيقة .

⁂

ومن المخاطر التى يتعرض لها الباحثون فى المشاكل التى بحثها الشيخ محمد عبده ، التأرجح بين المغالاة فى قيمة العقل والذهاب إلى أنه قادر على إدراك كل شىء .

و بين الهبوط بقيمته إلى مستوى دون ما ينبغى له .

إذ بينا يغالى فى قيمته قوم ، فيثقون به أكثر مما ينبغى ، ويقحمونه فيما لا تصل طاقته إليه ، يهمله آخرون حتى ما يكادون يعترفون له بفضل .

فأين كان الشيخ محمد عبده من هذه المسألة ؟ .

إن الذى يقرأ الكتاب الذى بين أيدينا ، يدرك فى وضوح أن الشيخ محمد عبده ، قد عول على العقل تعويلا يجعله فى عداد المفكرين الأحرار ، ويدرك أن الشيخ محمد عبده ، يرى العقل كفيلا بحل المشاكل .

ويمكن القول فى إجمال : إن الشيخ محمد عبده لم يفرط فى حق العقل ، ولم يبخسه حقه ، والكتاب الذى بين أيدينا كله شواهد ناطقة بذلك .

ولكن هل لم يغل الشيخ محمد عبده فى حق العقل ؟ وهذا هو الطرف الآخر فى المسألة ؛ فإنه ليس يكفى لحسن تقدير العقل أن لا نفرط فى حقه ، بل لا بد إلى جانب ذلك ، أن لا نغالى فى حقه ، لنحفظ عليه وضعه الطبيعى ، ونحله المكان اللائق .

وعندى أن الشيخ محمد عبده إذا كان لم ينقص العقل حقه ، فهو قد جاوز به حده .

لقد دفع الشيخ محمد عبده العقل دفعا ، ليقول فى حوادث المستقبل قولا يقينيا ، ومعرفة المستقبل معرفة يقينية تعتبر الآن من مشاكل الفكر الحديث .

ودعنا من الحكم على الشيخ محمد عبده بما يراه رجال الفكر الحديث ؛ فإن القدم والجدة ليسا معايير للتصديق والتكذيب ، وهات ماقاله الشيخ محمد عبده فى مسألة البعث الجسمانى .

وقبل أن نسوق ماقاله الشيخ محمد عبده فى هذه المسألة تعليقا على رأى زميليه ، نسوق رأى هذين الزميلين أولا ، فإن رأى الشيخ محمد عبده — وهو تعليق — لا يفهم إلا بعد فهم الفكرة التى كان هو تعليقا عليها .

قال العضد [والمعاد] .

قال الجلال :

[أى الجسمانى ؛ فإنه المتبادر عند إطلاق أهل الشرع : إذ هو الذى يجب الاعتقاد به ويكفر من أنكره] .

قال العضد :

[حق] .